وليم هازلت

١٧٧٨ — ١٨٣٠

وليم هازلت هو أحد أفذاذ الانجليز الذين ظهروا فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، والذين لعبوا دوراً هاماً فى تهذيب الأدب الانجليزى والسموّ به الى درجة قلما تجد لها مثيلاً فى سائر عصور الأدب الانجليزى . فقد كان هازلت ناقداً نافذ البصيرة ، وكاتباً من أرق طراز ، وصحافياً لا يشقّ له غبار ، وفناناً نابغاً .

وكان الى جانب ذلك وطنياً متحمساً ومصلحاً صادقاً تشبع بمبادىء الثورة الفرنسية وامتزجت الحرية بدمه فعبد روسو وقدّس نابليون .

ولا يتسع لى المجال لأن أتحدث عن تلك الشخصية العظيمة المتشعبة النواحى ولكنى أرى لزاماً علىّ أن أذكر شيئا ولو بسيطاً عن هازلت كناقد قد يعين القارىء المثقف على فهم تلك القطعة التى كتبها عن الشعر

لقد فهم هازلت الفن وكتب فيه الكتب التى تكشف لنا عن تلك الملكة القوية الفعالة التى وقفت على أسرار الفن العميقة والتى تدل على فهمه واحاطته بكل أنواع الجمال ، ولكنه كسائر الكُتّاب الرومانتيك قد عنى قليلاً أو لم يعنَ مطلقاً بالتفسير الفلسفى للفنون .

وقد حاول فى كل كتاباته أن يكون أمينا مع نفسه فلم تعوزه الشجاعة ليتحدث بصدق عما شعر ورأى .

وإن كان هازلت لم يعدُ فى كل ما كتب تجارب شعوره الخاص فهو على أى حال قد تحدث عما أحب من الصور لا لأنه جرى على تلك العادة التى تغرم بنوع خاص منها ، أو لأنه رآها فى معرض الجمال ، ولكن لأنه أحبها .

وقد أغرم بالمسرح الذى يقول عنه : « نحن نحب المسرح لأننا نحب أن نتحدث عن أنفسنا ، ونحن لا نحب شخصاً لا يحب الروايات التمثيلية »

وإن كان هازلت يخالف النقاد الذين أتوا بعده والذين جاءوا بنظريات ثابتة فى النقد متأثرين بالفلسفة التجريبية ونظريات التطور العلمى الحديث التى مسّت كل أنواع العلوم ولم تترك الأدب دون أن تصيبه ببعض الشرر ، والتى كان من أثرها تحديد البيئة واظهار مقدار تأثيرها فى الشاعر أو الكاتب ، إلا أنه لم يعدم قوة التمييز الدقيقة التى ربما كانت أولى صفات الناقد الحاذق، ولقد توفرت لهازلت صفات أخرى لم تتوفر فى أى ناقد آخر، فقد أحبّ الشعراء والكتاب حباً عميقاً وانكبّ على دراسة مؤلفاتهم حتى أصبحت عباراتها مألوفة عنده تجرى على لسانه كما تجرى آيات الكتاب على لسان الواعظ .

وقد يؤخذ عليه إسرافه فى هذا الحب الذى ربما أبعده قليلا عن الوقوف على نقائص الشاعر أو الكاتب المنقود .

وطريقته فى نقد شخص أو كتاب هى أن يخبرنا عن كيفية حبه أو كراهيته له ، وفى كل نقده يحاول أن يوقفنا على اعجابه الشخصى بهذا الشاعر سواء أكان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر .

أما تلك القطعة التى أعرضها أمام القارىء فهى محاضرة ألقاها هازلت عن الشعر عاماً ، وهى زعيمة بايقافنا على رأى هازلت فى الشعر الذى كان كل حياته. وقد أفاض هازلت فى شرح ماهية الشعر لأنه موضوع قلما أحاط به شخص ممن كتبوا فيه . وكما أن هازلت كان رجل حسّ وشعور فهو لم يرض أن يخضع الشعر لصور الكلام أو قوانين العلم .

إن هذا الموضوع دقيق التركيب فى أصله فهو ليس تأريخاً للشعر ولكنه تحليل لعناصره الجوهرية ومحاولة للكشف عن أسراره الخفية والوقوف على ما فيه من روعة وجمال ، فهو موضوع يعالج عنصراً هاماً من عناصر وجودنا بل بكل عناصره فوجودنا شاعر وحياتنا شاعرة .

فلا غرابة إذْ دقّ التعبير فى بعض المواقف أو خفى المعنى وراء الكلمات أحيانا فان هذا راجع إلى سمو الفكرة ودقة التعبير عنها ، ولأن الكاتب قد أورد تشبيهات واستخدم تعبيرات يألفها القارىء الانجليزى ولا يألفها القارىء العربى .

* * *

الشعر

للكاتب والناقد الانجليزى الشهير وليم هازلت

«إن أصدق تعريف يمكن أن أعرّف به الشعر هو انه الصورة الطبيعية لأى غرض أو حادثة ، فان قوته تولد فى الخيال والعاطفة حركة غير إرادية وتبعث رخامة فى الأصوات المعبرة عنها ...

وفى معالجة هذا الموضوع « الشعر » سأتكلم عن موضوعه أولاً ، وعن صور الافصاح التى يبعثها ثانياً ، وعن ارتباطه بموسيقى الصوت بعد ذلك : فالشعر لغة الخيال والعواطف ، فهو يتصل بكل شىء يبعث لذة أو ألماً فى الانسان وهو يستقرّ فى صدور الناس وأعمالهم لأنه ما من شىء يستقر فيها فى أعم وأوضح صورة إلا ذلك الذى يمكن أن يكون موضوعاً للشعر ، والشعر هو اللغة العالمية التى تصل القلب بالطبيعة .

وإن الذى يمتهن الشعر ويحطّ من قدره لا يمكن أن يقدر نفسه كثيراً أو يقدر أى شىء آخر ، فهو ليس مجرد عمل تافه كما يتوهم البعض او نوعاً من التسلية زهيداً لبعض القراء الخاملين فى ساعات الفراغ ، ولكنه دراسة للانسان وبهجته فى سائر العصور .

ويظن كثير من الناس أن الشعر شىء يوجد فى الكتب فقط ، فى تلك السطور المقفاة والموزونة ، ولكن حيثما توجد حاسة الجمال أو القوة أو الموسيقى كما فى حركة موجة البحر أو فى نموّ الزهرة التى تنشر أوراقها العطرية فى الهواء وتكرّس جمالها للشمس يوجد الشعر .

فليس الشعر فرعاً من فروع التأليف ولكنه المادة التى تكوّنت فيها حياتنا ، أما سواه فشىء منسىّ وخطاب مدفونٌ لأن كل شىء يسمو فى الحياة بمقدار ما فيه من الشعر .

الخوف شعرٌ ، والأمل شعر ، والحب شعر ، والكراهية شعر ، والارادة والحقد وتأنيب الضمير والاعجاب والجلال والرحمة واليأس والجنون محلّ هذه شعر . فالشعر هو أدقّ أجزائنا الداخلية وهو الذى يوسع ويرقق ويهذب ويسمو بوجودنا .

فبدونه كانت حياة الانسان تعسة كحياة الحيوان الأعجم . والانسان حيوان شاعر ، وأولئك الذين لا يفقهون نظريات الشعر وقواعده يسيرون عليها فى جميع شئون حياتهم كمثل Bourgeois Gentilhomme لموليير الذى كان يتكلم النثر دائماً دون أن يعلم بذلك .

والطفل شاعر فى الحقيقة عند ما يبدأ فى لعبة الاختفاء والبحث أو يستعيد قصة جاك القاتل الجبار ، والراعى شاعر عند ما يشرع لأول مرة فى تتويج سيدته بإكليل من الأزهار . والربى عندما يقف يشاهد قوس قزح ، والصانع الصغير عندما يتأمل فى اللورد العظيم . والبخيل عند ما يعانق ماله ، ورجل البلاط الذى يبنى آماله على ابتسامة ، والهمجى الذى يلطخ معبوده بالدم والعبد الذى يعبد سيده وسيده الذى يظن نفسه آلهاً ، والمعجب بنفسه والطموح والمتكبر والرجل السريع الغضب ، والبطل والجبان ، الشاب والكهل . كل أولئك يعيشون فى دنيا من خيالاتهم . وليس للشاعر عمل أكثر من أن يفصح عن أفكار وأعمال الآخرين .

ولو كان الشعر حلماً كانت الحياة حلما كذلك ، ولو كان خيالا جاء من وضع الأشياء كما نرغب ، فلا توجد هناك حقيقة أصدق وأفضل . فاريستو قد وصف حب ميدورو وانجيليكا ، ولكن ألم يكن ميدورو الذى نقش اسم حبيبته على قشور الأشجار كثير الافتتان بمحاسنها كما وصفه اريستو ؟ وقد أظهر هو ميروس غضب اخيل ولكن ألم يكن البطل مساوياً الشاعر فى جنونه ؟

وقد أبعد أفلاطون الشعراء من جمهوريته لئلا يفسد وصفهم للانسان الطبيعى انسانه الآلى الذى أوجده مجرداً من المواطف والميول لا يضحك ولا يبكى ، لا يحزن ولا يغضب ، لا يؤلمه أو يبهجه شىء ، ولكن هذا لم يكن إلا ضغثا أو وهما وان عالم هو ميروس الشعرى قد عاش أكثر من جمهورية أفلاطون الفلسفية .

فالشعر على ذلك محاكاة للطبيعة ، ولكن الخيال والعواطف جزء من طبيعة الانسان . فنحن نشكل الأشياء حسب رغائبنا وأوهامنا بدون الشعر ، ولكن الشعر أكثر اللغات تثبيتا لمبتكرات العقل التى تشتمل على عناصر المتعة والجمال . فلا الوصف المجرد للأشياء الطبيعية ولا الافصاح المحدود عن الشعور الطبيعى مهما يكن قوياً فعالاً يستطيع أن يحدد غاية الشعر وغرضه دون أن يسمو بالخيال . وضوء الشعر ليس مباشراً فقط ، ولكنه منعكس أيضاً . فبينما يكشف لنا

عن الشيء ذاته يلقى بأشعة متلألئة حوله . وان لهب العواطف باتصالها بالخيال تكشف لنا كوميض النور عن مواضع الفكر الداخلية وتتخلل فى سائر أجزائنا .

والشعر يمثل الصور كما ترتبط بصور أخرى غالبا ، أو المشاعر كما تتصل بصور أو مشاعر أخرى أيضا . وهو يبعث بروح الحياة والحركة الى العالم ، ويصف الحركة لا الجمود . وهو يحصر حدود الحس أو يحلل دقائق الفهم ولكنه يدل على خصب الخيال تحت تأثير عادى لأى غرض أو شعور .

وان الأثر الشعرى لأى شيء هو الاحساس العظيم المضطرب بالجمال والقوة الذى لا يمكن أن يبقى فى موضعه والذى يضيق بكل الحدود والذى — كما تميل النار للنار — يجدّ فى ربط نفسه بصورة أخرى من الروعة والجمال ، ويحفظ نفسه كما كان فى أسمى صور التخيُّل ، ويخفف من ألم الشعور باللذة بالافصاح عنها . ولهذا السبب كان الشعر فى نظر اللورد بيكون يتضمن معنى ساميا لأنه يسمو بالعقل إلى سماء الرفعة بترتيبه مظاهر الأشياء على حسب أهواء الروح بدلاً من اخضاعه الروح للمظاهر الخارجية كما يفعل العقل والتاريخ ... فهو اللغة الدقيقة للخيال . والخيال هو تلك الملكة التى تمثل الأشياء لا كما هى فى ذاتها ولكن كما تتشكل بأفكار ومشاعر أخرى متباينة: نحن نشبه الرجل المملاق بالبرج لا لأنه يساويه حجماً ولكن لأن زيادة حجمه على نظرائه تولد بالتناقض شعوراً أعظم بالكبر والقوة مما يولده شيء آخر فى عشرة أمثاله مع نفس الابعاد . أما شعر المآسى الذى هو أقوى أنواع الشعر تأثيراً فهو يحاول أن يأخذ الشعور الى أسمى درجات الرفعة والثورة العاطفية ويفقد حاسة الألم الوقتى بالافراط فيه ويضعف الهلع والرحمة بالانغماس فيهما ، ثم يأخذنا إلى الوراء حيث الماضى ، وإلى الامام حيث المستقبل ويستحضر أمامنا كل حركة من حركات وجودنا ، أو كل غرض للطبيعة فى نظرة مستعادة ، وفى ذلك الدور السريع لهذه الحوادث ينتشلنا من أعماق البؤس إلى سعادة الأمل فى الحياة فعند ما يتحدث لير عن ادجار فى رواية King Lear لا شيء غير بلتيه الجامدتين قد أوصله إلى هذه الحالة ، فما أكثر حيرته والتواء خياله ذلك الذى لا يمكن أن يستحضر ليتدبر كل سبب للبؤس من ذلك الذى هوى به وامتص كل حزن آخر فى نفسه ! فحزنه كينبوع تتفجر منه الآلام .

وما أبدع رجوع ذلك الانفعال النفسانى إلى عطيل ! وما أشد امتزاج الأسف واليأس فى حرارة آلامه عند ما يودع سعادته الزائلة فيقول :

أما الآن فوداعاً إلى الأبد !

وداعاً أيها العقل الهادىء المستقر . وداعاً أيتها السعادة !

وداعاً أيها الجند ذوو الخوذات المزدانة بالأرياش !

وداعاً تلك الحروب التى تجعل الطموح فضيلة !

وداعاً ! وداعاً أيتها الجياد الصاهلة ، والأبواق النازفة ، والطبول الداوية ، ومزمار الحياة !

وداعاً أيتها الراية الملكية !

وأنتِ أيتها الكبرياء والعظمة وساعات الحروب وداعاً !

وأنتِ أيتها الآلات المدمرة التى أهلكت أنفساً تئن أصواتها يوم النشور وداعاً !

ان مجد عطيل قد ذهب ولن يعود !

وكيف أن شعوره النفسانى يزداد ويتضخم ويثور كتيار دافق فى مجرى عميق عند ما يجيب تلك الشكوك التى حامت حول حبه الذى يعاوده فيقول :

« أبداً ، ياجو ! إن أفكارى الجهنمية ستخطو الى الامام ، ولن تنظر وراءها ولن تعود للحب الرادع حتى يلتهمها ذلك الانتقام الفظيع » .

ثم تصل به الغيرة القوية إلى مدى عظيم فيقول منادياً الانتقام :

« وأنت أيها الانتقام الاسود الفظيع استيقظ من فراشك المخيف ! وأنت أيها الحب سلم عرشك الذى تربعت عليه فى مملكة قلبي !

الى الكراهية العنيفة » .

وحالة واحدة يثير فيها المنظر المسرحى عطفنا دون أن يثير تفززنا هى تلك التى تقوى الشر وتقوى أيضاً الرغبة فى الخير ، وترقى إدراكنا للنعمة بأن تجعلنا نشعر بأهمية ما نفقده .

وعاصفة الشوق تكشف لنا عن أغنى أعماق الروح الانسانية ، وكل حياتنا ومجموعه هوائنا وأمانينا وذلك الذى نشتهى وذلك الذى نخاف تعرض أمامنا بطريق التناقض . وشدة العذاب السريع تبعث فينا شوقاً أكثر مدة وتمازجاً فى الشعور أكثر اتصالا بعالم الخير وتجعلنا نغترف أكثر وأعمق من قدح الحياة الانسانية وتجذب خيوط

القلب وتفك الضيق الذى يحيط بهـا وتدعو ينابيع الفكر والشعور الى مشاهد الرواية بعشرة أضعاف القوة .

ومع ذلك فاللذة التى نحصل عليها من الشعر الباكى ليست شيئاً ملازماً له كالشعر أو أى شىء روائى أو تخيلى ، وهى ليست نقد ا فى الخيال اذ تستمد مصدرها وأساسها من الحب العام ومن الثورة النفسية القوية . وكما يقول بيرك Burke : «يتجمع الناس لمشاهدة مأساة ولـكن إذا كان هناك فى أحد الشوارع المجاورة منظر لاعدام شخص نسرعان ما يخلو المسرح من المشاهدين ، ونحن نميل إلى ترك أهوائنا العنيفة عنـد قراءتنا وصفاً عن غيرنا ، وكذلك نميل لخلق ألم من مخاوفنا كما نسعد بآمالنا فى الخير فلو سئلنا لماذا نعمل هكذا كان الجواب لأننا لا نستطيع مساعدته أو تخفيفه .

فالاحساس بالقوة نظرية قوية فى العقـل كالاحساس ذاته وكحب اللذة مثلا . ومظاهر الرعب والاشفاق تولد نفس السلطان عليه كما تبعثه مظاهر الحب والجمال فمن الطبيعى أن نـكره كما نعجب ، وأن نفصح عن كراهيتنا ومقتنا كما نعبر عن حبنا واعجابنا .

والهوى العنيف يقودنا الى حيث يحب أو يعاف ، ليس لا ننـا نحب ما نعافه ولـكننا نحب أن نغض الطرف عن كراهيتنا ومقتنا له ، وأن نعلو عليه وأن نُضفى رأينا فيه بذكاء حاد وتصوير مشبع وأن نجعله مرعبا لأنفسنا وأن نظهره للناس فى جميع مظاهر نقصه وأن نلبسه للحواس وأن نسميه باسمه وأن نـكافحه بالفـكر والعمل وندرع ارادتنا ضده ونعرف أردأ الأشياء لنناضله بها وننازله حتى النهاية

والشعر يترجم عن ضمير الهوى وهو أقوى صور التعبير عن ادراكنا أى شىء سواء أكان مسرا أم مؤلما حقيرا أم جليلا مبهجا أم محزنا . فهو أكمل مطابقة للصور والـكلمات على احساسنا بالشعور الذى نملكه والذى لا يمـكننا أن نتخلص منه بأى حال . ذلك الذى يرضى الفـكر .

وهذا هو أساس الذكاء والتخيل ، المسلاة والمأساة ، الرزين والهائج . والخيال يعطى حرية مطلقة الى الأمانى المبهمة الملحة على الارادة بتشكيلها فى صور . نحن لا نريد أن يكون الشىء كذا ولـكنا نود أن يظهر كما هو لأن المعرفة قوة مدركة والعقل لم يعد فى هذه الحالة خدعة وإن وقع فريسة الا ذيلة والحق ، والشعر فى جميع صوره لغة الخيال والعواطف والتخيل . وما من شىء أسخف من ذلك

الصوت الذى يرتفع أحياناً من جانب أولئك النقاد الجفاة الأدعياء بإخضاع روح الشاعر الى مقياس الذوق العام والعقل لأن غاية الشعر وثمرته ـ قديماً وحديثاً ـ كانت ولا تزال مرآة الطبيعة التى ترى بوساطة العاطفة والخيال فلا تظهر بوساطة الصدق الخالص أو العقل الدقيق .

دع ذلك الشاعر الذى يريد سلب الطبيعة ألوان التخيُّل وأشكاله ، فالشاعر ليس مطالبا بذلك ، وتأثيرات الحس العام والخيال القوى ، أى خيال الهوى الجامح وعدم الاكتراث ، لا يمكن أن تتشابه وينبغى أن تكون لها لغة خاصة بها فتعدل بينها . . . والأشياء تؤثر فى العقل تأثيرات متباينة بعيدة عن قيمتها فى نفسها على حسب حالنا فيها من فوائد مختلفة ، وكما نراها فى وجهة نظر أخرى وقربها وبعدها من الجدّة والابتكار أو بمقدار إلمامنا بها أو جهلنا لها . . . أو من تخوفنا من نتائجها أو من تناقضها أو شكلها المفاجىء . فنحن لا يمكننا أن نبعد عنا ملكة الخيال أكثر من أن نرى جميع الأشياء بدون ضوء أو ظل . فبعض الأشياء يخطف أبصارنا بنوره القوى الأخاذ والبعض الآخر يستولى على جميع مشاعرنا ويحاول أن يجعل دهشتنا تفصح عن غموضه ، فأولئك الذين يبددون هذه الأوهام المتباينة ليقدموا لنا عوضاً عنها شكلها العادى ليسوا من سداد الحكمة فى شىء .

دع العالم الطبيعى يحمل — إذا أراد — الحشرة التى تدعى (سراج الليل) فى صندوق الى منزله ثم ينظر اليها فى اليوم التالى فلا يجدها الا حشرة رمادية اللون .

ولكن دع الشاعر أو محبّ الشعر يزورها فى المساء عند ما تشيد لنفسها قصراً من النور الزمردى تحت فروع السوسن العاطرة وأشعة الهلال الباردة ، فهذا جزء واحد من الطبيعة أو جانب واحد قدمته تلك الحشرة ولكن ليس أقلها متعة أو فائدة .

كذلك الشعر جزء من تاريخ العقل الانسانى وإن لم يكن علماً أو فلسفة ، وعلى ذلك لا يخفى أن تقدم المعرفة والتهذيب يميل الى الاحاطة بحدود الخيال وإلى اهاضة أجنحة الشعر ، ومملكة الخيال تخيلية فى أصلها فهى العالم غير المعروف غير المحدود ، والفهم أو الادراك يعيد الأشياء الى حدودها الطبيعية ويجردها من دعاويها التخيلية . كذلك الحال فى تاريخ الحماسة الدينية والسياسية وكلتاهما قد نالتهما صدمة

من تقدم الفلسفة التجريبية فان الذى يوجد الخيال هو العالم غير المحدود ونحن يمكننا فقط أن نتخيل ما لا نعرفه كما ننظر فى تيه غابة متشابكة الأغصان فنملؤها بما نشاء من الأشكال، من حيوانات ضارية ومغاور خربة وأماكن موحشة. وكذلك شأننا فى جهلنا بالعالم المحيط بنا نضع آلهة وشياطين من أول شبح يظهر لنا ولا نجعل حدوداً لرغائبنا القوية من آمال وأهوال وتصورات كما تراها عيون الشعراء عالقة فى كل ورقة ممسكة بكل فرع. فلن يتكرر حلم يعقوب فمنذ ذلك الحين والسماوات قد ذهبت بعيداً وأصبحت تابعة لعلماء الفلك يدرسون نظامها ولم تعد صالحة للخيال. وليس تقدم المعرفة العلمية فقط هو الذى يناهض روح الشعر ولكن التقدم الضرورى للمدنية يناهضه أيضاً، ولكن لا ينبغى أن نكون أقل تخوفاً من العالم الذى فوق الطبيعة، ولكنا نستطيع أن نكون أكثر ثباتاً وننظر الى هذا الطريق المنظم نظرة أقل اكتراثاً.. فأبطال عصور الخرافات قد خلصوا العالم من الوحوش والجبابرة، والآن نحن أقل عرضة لتقلبات الخير والشر أو إلى غارات الوحوش الكاسرة أو فتك اللصوص أو الى الغضب الثائر لعناصر الطبيعة وآتى الزمن الذى يقشعر فيه شعرنا المسبل من مقال عنيف قوى فيهزنا هزاً كما لو كانت حياتنا فيه. ولكن نظام المدنية أفسد كل ذلك فلا يمكننا إلا بجهد أن نتصور قتلاً فى منتصف الليل.

فكبت لم يسمح بها فى هذه المملكة ـ انجلترا ـ الا لموسيقاها الجميلة، وفى الولايات المتحدة حيث نظريات الحكومة الفلسفية قد بلغت شأوا بعيداً نظرياً وعملياً نجد أن أوبرا الشحاذين قد أبعدت عن المسرح وتطور المجتمع تدريجياً الى آلة تقودنا فى طريق سهل مريح.

وهذه الملاحظات التى أوردناها تقودنا الى حد ما الى حل مسألة الميزات النسبية للتصوير والنحت، وأنا لا أقصد الى تفضيل أحدهما على الآخر ولكن يجب أن يظهر أن النقاش الذى قام أحياناً بأن التصوير يجب أن يكون تأثيره فى الخيال أقوى لأنه يمثل الصورة فى درجة أوضح لم يثبت للبحث تماماً.

ويمكننا أن نقول بدون اعتساف كثير إن الشعر أكثر شاعرية من التصوير عند ما يتحدث الفنانون عن قواعد الشعر فى التصوير يظهرون أن حظهم من معرفة الشعر قليل وأن حبهم للفن ليس بالكثير، فالتصوير يعطى الشىء نفسه

والشعر يبرز ما يحيط به مهما تكن درجة ارتباطه به ولكن هذا الأخير داخل فى مملكة الخيال .

ثانياً من حيث علاقتها بالعاطفة : التصوير يصوّر الحادثة ، أما الشعر فيصور تطور الحوادث ، ففى أثناء التطور وفى فترة الانتظار والترقب عند ما تصل آمالنا ومخاوفنا الى أقصى درجات الالم النفسى نجد موطن الجمال الفنى ، ولكن بمجرد ما تنتهى الصورة ينتهى كل شىء . والأوجه هى أحسن أجزاء الصورة ولكن هذه الأوجه نفسها ليست تلك التى تذكرنا بأحسن أنواع لذاذاتنا ، ولكن ربما يسأل سائل ألا يوجد أفضل من مناظر Claude Lorraine أو رسوم Titian أو صور Raphael أو تماثيل اليونان ؟

أما عن الاثنين الأولين فلا أقول شيئاً فهما الى التصوير أقرب منهما الى الخيال وأما صور روفائيل فهى لا شك أبدع الشروح التى عملت للكتاب المقدس ، ولكن هل كان تأثيره يكون كذلك فى حالة عدم معرفتنا بالكتاب المقدس ؟ ولكن العهد الجديد وجد قبل الصور — بيد أنه يوجد موضع لم تعمل له صورة وهو صورة المسيح وهو يغسل أقدام تلاميذه فى الليلة السابقة لصلبه ولكن هذا الجزء لا يحتاج الى شرح .

أما تماثيل اليونان فهى أقل من الاشكال الأصلية ، فهى رخام للعس والقلب ولكنها لا تدل على شىء فى داخلها ، فهى فى جودتها التامة تحمل الكفاية لنفسها ولجمالها فقد سمت فوق العزم الضعيف والارادة الواهنة فى اللذة والألم . وقد عبدت لجمالها ولكنها لا تحمل فيها عقيدة دينية . وأشكالها أقرب الى الانسانية العادية ويظهر أنها لا تشفق علينا وأنها فى غنى عن اعجابنا بها . والشعر فى جوهره وشكله وصف أو شعور طبيعى قد امتزج بالعاطفة أو الخيال ، وفى أثناء سريانه يمزج الفائدة الملموسة باللغة بالتعبير الموسيقى .

ولكن يوجد سؤال طال عليه السكوت ولم يجب : وهو فى أى شىء يوجد جوهر الشعر ؟ أو ما الذى يحدد تعبير بعض الناس عن آرائهم نثراً والبعض الآخر نظما ؟ لقد أوقفنا ملتون على رأيه فى الشعر وهو : « الشعر هو الأفكار التى تثير فينا نغمات متوافقة ليست ضد ارادتنا » . وكما توجد أصوات خاصة تثير حركات خاصة أيضاً وكما يتفق الغناء والرقص معاً ، كذلك توجد من غير شك أفكار خاصة

تؤدى إلى نغمات خاصة فى الصوت أو فى ترخيمه ، وتغير كلمات عطارد الى أناشيد أبولو . ويوجد مثل قوى لهذا الضرب من ملاءمة حركة الصوت والوزن للموضوع فى وصف سبنسر للآلهة معطجية Una إلى مغارة Sylvanus فى روايته Fearie Queene . وعلى النقيض من ذلك فليس هناك شىء موسيقى أو طبيعى فى التركيب العادى للغة ، فهى شىء عُرفى أو اصطلاحى تماماً أو هى محض عرف أو اصطلاح وليس هناك فى الأصوات نفسها التى هى شارات ارادية لأفكار خاصة وليست داخلة بأنظمتها الأساسية فى الكلام العام لنظرية المحاكاة الطبيعية صلة بالأفكار الفردية أو بنغمة الشعور التى تصل بها الى الغير . وخشونة النثر وركاكته وعلهلته قاضية على فيض الخيال الشعرى كما يشوش الطريق الكثير النجاد والوهاد أو الجواد المتعثر أوهام المسافر المكدود ، ولكن الشعر يقضى على هذه الشواذ فهو موسيقى اللغة مجيبة لموسيقى العقل .

حيثما يوجد ذلك الذى يستحوذ على العقل بأن يجعلنا نتغلب عليه مذيبين القلب فى الرقة أو نضرم فيه شعور الحماسة ، وحيثما تطبع حركة الخيال أو العاطفة على العقل الذى به تستطيل وتستعيد العاطفة ليصحب بعضها سائر الأغراض الأخرى ولتعطى نفس حركة النغمات المتفقة القوية المستمرة أو المتباينة تدريجياً — مراعاة للحال — إلى الأصوات التى تعبر عنها كان هذا شعراً . وهناك اتصال قريب بين الموسيقى والعاطفة العميقة فالمجانين يلشدون حالما يصل النطق عادة الى اللحن وعندئذ يبتدىء الشعر .

وعند ما تعطى فكرة واحدة نغمة ولونا للافكار الأخرى وعند ما يذيب شعور واحد المشاعر الأخرى فيه فهناك لا يمكن السؤال لما ذا لم تمتد نفس النظرية الى الاصوات التى بواسطتها يخرج الصوت بعواطف الروح ويمزج المقاطع والأسطر بعضها ببعض ، وبالاختصار فعند ما تأخذ لغة الخيال بعيداً عن الأرض وتمكنها من نشر أجنحتها حيث يمكن لها أن تتغاضى عن بواعثها الخاصة تسبح بملكها السامى خلال طبقات الهواء دون أن توقف أو تكاد أو تقف فى طريقها العقبات الفجائية وأدوار النثر المتنافرة ، فعندئذ يعرف الشعر ، فهو للغة العامة كالمحاور للعربة وكالأجنحة للأقدام .

فى الكلام العادى نصل إلى نغمة خاصة بتنغيم الصوت ، كذلك فى الشعر

بترتيب منظم للمقاطع ، وكل كاتب عنده طرق للوزن كثرت أو قلّت إلا الشعراء الذين عند تجردهم من التركيب الآلى للشعر يظهرون بكتابة سليبة من الألحان . ومن المسلم به أن القافية تساعد الحافظة فى عملها ، ولكن نظم بوب يمل من فرط عذوبته ووحدة الشكل ، وشعر شكسبير المرسل هو غاية ما تبلغه المحاورة التمثيلية من الجودة .

ولا يقف الوزن وحده للتفريق بين الشعر والنثر : فالالياذة لا تقف عن أن تكون شعراً - فى تعبير أدق - والنثر العام يختلف عن الشعر كأن يعالج فى معظمه إحدى هذه الحقائق المألوفة المبتذلة ، كأن لا يبعث للخيال بشىء جديد وإلا فباحدى عمليات الفهم الشاقة المضنية ، وكأن لا يرضى بتلك الارادة أو الحركات العنيفة للخيال أو الأهواء .

وسأذكر ثلاثة كتب تأتى قريبة من الشعر وإن لم تكن شعراً ، وهى : تقدم الحاج (سياحة المسيحى) وروبنسون كروزو وقصص بوكاشيو .

وقد ترجم تشومبر ودريدن بعضاً من الكتاب الأخير الى شعر مقفى ولكن جوهر الشعر وقوته كانتا فيه من قبل .

فذلك الذى يصعو بالروح بعيداً عن الأرض والذى يجرد الروح من نفسها بأشواق تجل عن الوصف إنما هو شعر فى النوع وهو يصلح عادة أن يكون كذلك فى الاسم بتزويجه بالوزن الخالد ، فمن خصائص الشعر أنه يثير الخيال ويقويه .

« فيوحنا بنيامين » و « دانيال ديفو » يمكن أن يسمح لهما بالمرور فى طريقهما فزج الخيال بالحقيقة فى كتاب (سياحة المسيحى) لم يبارَ فى أى كتاب استعارى آخر . فحجيجه علَوْا فوق الأرض وهم مع ذلك يسفّون .

وما أشدها حماسة وما أبدعه جمالاً وما أصدقه خيالاً وأعمقه شعوراً عند وصفه المسيحى وهو يعبر النهر أخيراً فيه تصويره أولئك الذين تسطع عليهم الأنوار الزاهية داخل الأبواب وعلى ظهورهم أجنحة وعلى رءوسهم أكاليل الورد وهم يمسحون الدموع من مآقيه .

ولكن ماذا نقول عن روبنسون كروزو ؟ وما عليك الا أن تأخذ خطبة البطل

اليونانى عند مغادرته مغارته — ومهما تكن جميلة — ثم اقرنها بتأملات المخاطر الانجليزى فى مكانه المنعزل القصى .

فالأفكار عن الوطن وعن كل ما انفصل عنه انفصالاً أبدياً تثور وتخفق فى صدره كما يرتطم تيار المحيط الصاخب بصخور الشاطىء ، وإن ضربات قلبه لا تزال تُسمع وسط ذلك السكون الأبدى الذى يحيط به .

ولأن قصة مخاطراته لا تنهض قصة كالاوديسا ـ فهذا حق ـ ولكن القاصّ توفرت لديه عبقرية الشاعر الفذ ، وقد سئل عما إذا كانت روايات رينشاردسن شعراً وربما كان الجواب هكذا : إنها ليست شعراً لانها ليست خيالية ، فالعطف الذى أثارته لم يكن ارادياً بل جاء متكلفاً . وما من شىء صدر عن النفس رأساً ، وهى فى حاجة الى كثير من المرونة والحركة . والقصة لا تعطى صدى لذلك المقعد الذى توّج عليه الحب ولم يفصح القلب عن نفسه كما يفصح الوتر فى الموسيقى .

ولم يَنْسَبْ الخيال أمام الكاتب بدون إعمال جهد فى ترقبه . ولكنه جُرّ بعددٍ لا يحصى من الدبابيس والدواليب كتلك التى استخدمها أهل « الليبوتا » فى تقييد جليفر وجرّه الى القصر الملكى ! نعم يوجد صدق عظيم وشعور فى رينشاردسن ولكن هذا قد أخذ من الظروف المحيطة ولم يأتِ من النفس . وشاعريته كروح آريل Ariel محصورة فى شجرة الصنوبر وتحتاج إلى عملية صناعية لتخرجها !

وكتابات برك ليست شعراً رغم ما فيها من قوة التصور الواضحة لأن موضوعها مبهمٌ غامضٌ جافٌ صناعى وليس طبيعياً .

فالفرق بين الشعر والفصاحة هو أن الأول فصاحة فى الخيال ، والأخرى فصاحة فى الفهم أو الادراك . الفصاحة تحاول أن تستميل الارادة وتقنع العقل ، أما الشعر فيبرز تأثيره بمجرد الشعور البسيط . والشىء الذى يقبل النزاع لا يصلح أن يكون موضوعاً للشعر ، والشعراء فى الغالب كتاب نثر من النوع الردىء ، لأن صورهم وإن كانت حسنة فى نفسها فهى ليست كذلك فى الغرض ولا تتسع للمحاورة .

والشعر الفرنسى تنقصه صور الخيال ، فهو شعر تعليمى أكثر منه مسرحياً .

وبعض شعرنا الذى نال كثيراً من الاعجاب هو شعر فى الوزن فقط وفى الفائدة المعروفة من العبارة الشعرية .

وسأختم هذه الإلمامة ببعض الملاحظات على أربع من المؤلفات الشعرية المشهورة في العالم في عصور متفاوتة ، وهي : مؤلفات هوميروس ، والتوراة ، ودانتي . ودعني أضيف لهذه Ossian .

ففي هوميروس نجد نظرية الحياة وعملها ظاهرة ، وفي التوراة نظرية العقيدة والإيمان وفكرة العناية الالهية ، وفي دانتي تشخيص للارادة العمياء ، وفي أوسيان تدهور الحياة ونهاية العالم . وشعر هوميروس بطول : فهو مملوء بالحياة والعمل وهو لامع كالنهار قوي كالنهر ، وهو يكافح بقوة ذهنه جميع أغراض الطبيعة ويدخل في كل ما له مساس بالحياة الاجتماعية ، فقد رأى هوميروس كثيراً من الأقطار ووقف على أخلاق كثير من الرجال وجمع كل هذه في قصيدته .

فهو يصف أبطاله ذاهبين الى المعركة غير مبالين بحياتهم هابين بتأثير قوتهم الجسمية ، فنراهم أمامنا بكامل عددهم ونظامهم الحربي في السهل ، والكل متحل بأوسمة الشرف كالنعام وكالطيور الحديثة الاستحمام ، لاهين كالمعز ، جفلين كصغار العجول ، مملوئين شباباً كشهر مايو ، مغمورين بالجمال والبهاء كالشمس في منتصف الصيف ، مغطين بالسلاح البرّاق وبالتراب والدم بينما تشرب الالهة شرابها النفيس في أكواب من ذهب ، وقد اجتمع الشيوخ على أسوار طروادة يحيون هيلين وهي تمر بهم . وإن تجمع هذه الاشياء في هوميروس عجيب رائع في بهائه وصدقه وقوته وتنوعه ، وشعره كدينه شعر الرقم والصورة : فهو يصف الأجسام كما يصف أرواح الرجال ، وشعر التوراة هو شعر الخيال والايمان : فهو معنوي غير مجسّد ، وهو ليس شعر الصورة ولكنه شعر القوة . ليس شعر الكثرة ولكنه شعر العظمة فهو لا ينقسم الى كثير ولكنه ينظم الى واحد . وهو ليس شعر الحياة الاجتماعية ولكنه شعر الوحدة . فكل انسان يظهر وحيداً في العالم لا يعيش إلا مع العناصر الأولية للطبيعة : الصخور والارض والجو . وهو ليس شعر العمل أو حياة البطولة أو المخاطرة ولكنه شعر الايمان بالعناية الالهية السامية والتسليم الى تلك القوة التي تدبر هذا العالم .

وكما أن فكرة الله قد أبعدت كثيراً عن الانسانية وعن فكرة القول بكثرة الآلهة فقد أصبحت أكثر تغلغلاً كما أصبحت أكثر عمومية لأن غير المحدود حال في كل مكان : فلو طرنا الى أقصى أجزاء الأرض نجده هناك أيضاً ، واذا يممنا شطر الشرق أو شطر الغرب لا نستطيع الافلات منه ، وعلى ذلك لقد عظم الانسان في صورة خالقه.

وتاريخ البطارقة من هذا النوع فهم المؤسسون لنوع مختار من الناس والوارثون

لهذه الأرض وهم يعيشون فى الأجيال التى تتلوهم ، وشعرهم كعقيدتهم الدينية فسيح غامض غير محدود فيه تخيُّل وتظهر فيه يد خفية .

وروح الديانة المسيحية توجد فى هذا المجد الذى سيكشف فيما بعد .

ولكن فى الناموس العبرى أخذت العناية الآلهية حظاً مباشراً فى أعمال الحياة .

وقد ظهر حلم يعقوب من تلك الصلة القوية بين السماء والأرض وقد كانت هى التى أنزلت سلماً على مرأى من البطريق الشاب من السماء الى الأرض بملائكة يصعدون وينزلون عليه وقد سكبت نوراً وهّاجاً لن يخبو على المكان المنفرد .

وقصة « راعوث » تظهر كأن جميع ما فى الأصل الانسانى من شوق طبيعى قد طوى فى صدرها وفى كتاب أيوب كثير من الأوصاف أكثر إسرافاً من التصوير وأكثر حدة فى العاطفة من أى شىء فى هوميروس كوصف حالة سعادته وعزّه وثروته التى جاءته ليلا . والاستعارات فى العهد القديم أقوى بياناً وقد تجمعت تلك الأشياء فدفعت الخيال أمامها ، وقد كان دانتى أبا الشعر الحديث ، وعلى ذلك يحق له أن يحل مكاناً فى هذه الحلقة . فقصيدته أول خطوة واسعة منذ الظلام القوطى وعهد الهمجية . وجهاد الفكر فيها للقضاء على العبودية التى كبلت العقل الانسانى أجيالا عدة يظهر فى كل صفحة ، فقد وقف دانتى وحيداً غير هيّاب ولا وَجِل على ذلك الشاطىء المظلم الذى يفصل العالم القديم من العالم الحديث ورأى أمجاد القديم بازغة من خلال وهدة الزمن بينما أبان الالهام عن جانبها الى العالم الآخر وقد تملكه الدهش مما رآه أمامه وقد تجاسر على مباراته .

ويظهر أن دانتى مدين للتوراة بنغمة الحزن فى فكره وبغضبه الذى يشبه غضب الأنبياء والذى سمّا بشعره وأضرم ناره ، ولكنه يخالف هوميروس كل المخالفة فذكاؤه ليس لهباً متلالئاً ولكنه حرارة أتون متقد فهو قوة وعاطفة وارادة مشخصة .

وكل ما يتصل بالجزء الوصفى أو التصورى من الشعر لا يحتمل مقارنة بكثير من الذين سبقوه أو من الذين أتوا بعده ، ولكن توجد فى آرائه أشياء معنوية قاتمة كالثقل الميت على العقل : فذهول مخدّر ، ورعب من حدة التأثير ، وغموض مخيف كالذى يضايقنا فى الأحلام ووحدة المنفعة التى تشكل كل شىء تبعاً لرغائبها وتلبس كل الأشياء بأهواء وخيالات الروح الانسانية . كل هذه تعوضنا عن كل نقائصه الأخرى . والأشياء المباشرة التى يقدمها للعقل ليست كثيرة فى ذاتها فهى فى حاجة الى الروعة والجمال والنظام ولكنها أصبحت كل شىء بواسطة قوة شخصيته التى طبعها عليها ، فعقله يعير قوته الخاصة الأشياء التى يتأملها بدلا من أن

يستعيرها منها . وهو يغتنم الفرصة حتى من موضوعه المتجرد المقفر . وخياله يمرّ ظلال الموت ويفرخ فى الهواء الصامت . وهو أشد الكتاب صرماً وأكثرهم شدة ومناعة وأعظمهم تناقضاً للشيء المزهر اللامع الذى يعتمد غالباً على قوته الخاصة والشعور بيا فى الآخرين والذى يترك فضاء عظيم الاتساع لخيال قرائه . وغاية دانتى الوحيدة هى أن يفيد ويرغّب ، وهو يفيد بإثارته شعورنا بالعاطفة التى يدين لها هو نفسه .

فهو لا يقدم لنا الاشياء التى أوجدت العاطفة ولكنه يمسك بقوة انتباهنا باظهاره لنا الاثر الذى تبعثه فى أحاسيسنا . وشعره يعطى تبعاً لذلك نفس الحس الغامر كل شيء . وعدم احتمال وقوع الحوادث والمفاجأة وعدم التغير فى الجحيم بالغة الحد ولكن الفائدة لن تضعف ابداً الغيرة الدائمة فى عقل المؤلف ، وقوة دانتى الرائعة توجد فى مزجه المشاعر الداخلية بالمظاهر الخارجية . لهذا كان باب جهنم الذى كتب عليه ذلك النقش الباهت يظهر أنه وُهب الكلام والادراك وأنه يلفظ تحذيرها المروع بالشعور بالآلام الفانية . وسأذكر كاتباً آخر لا يمكننى أن أستميل نفسى لتظن أنه حديث خالص فى الاصل وهو « أوسيان » فهو شعور واسم لن يزولا من عقول القراء . وكما أن هومير أول من مثل القوة والبأس فأوسيان هو ممثل عصر هرم الشعر وفنائه فهو يعيش فقط فى الذكرى والتأسف على الماضى ، وهناك أثر واحد أظهره بجلاء دون سائر الشعراء الآخرين وهو الاحساس بالفاقة وفقدان كل شيء من أصدقاء واسم طيب ووطن : فهو يكاد يكون من غير آله فى الحياة وهو يتحادث مع الأرواح الراحلة ومع السحب الثابتة الساكنة عندما يسكب نور القمر البارد لمعانه الذابل فوق رأسه ، وينظر ابن آوى خلسة من خلال الحصن المتهدم وأوتار قيثارته تظهر كأنها يد الدهر أو أن قصة العصور الأخرى قد أدركتها وهى تئن وتحشخش كأنها قصبات يابسة فى ريح الشتاء .

فالشعور بالخراب الموحش وفقد لب الحياة وفناء المادة والتعلق بظل جميع الأشياء قد صور تصويراً رائعاً .

وعلى ذلك كان انتخاب Selma لفقد Salgar أروعها جميعاً .

وإذا جاز لنا حقاً أن نعلن أن هذا الكاتب لم يكن شيئاً كانت هناك حالة واحدة لتعضيد ذلك ، فان خلوّه يتبعه فراغ فى القلب ثم حصر لذلك الشعور الذى يجعله يشكو دائماً قائلاً :

« أيتها السنين المظلمة السوداء أتمّى دوراتك ولا تأت بفرح أو سرور على جناحك إلى أوسيان » .؟

فلمى خليل